# من دمشق إلى الهافانا
# نستولوجيا المكان وذاكرة التاريخ

**هند نوري عبيدين**

من باب الحنين أو كنوع من النستولوجيا قد نرغب أحياناً في استحضار التاريخ لأننا لا نريد له أن يمضي ويغادرنا، لا سيما إذا كانت الذاكرة سكناه التي استطيب فيها المقام..

نغمض العين ونستعيد الذكرى، شخوص مرت وأحداث جرت وأيام توالت، حلقات متصلة بعضها يجر بعضها الآخر، فمهما تناقضت أو تشابهت، اقتربت أم ابتعدت، تيسرت أو تعثرت، فهي شبكة متواصلة من حلقات تترابط وتتشابك لتشكل وقائع تاريخية جرت..

نستذكر ما مرّ، نستخلص الدروس والعبر، فالتاريخ كالنهر المتدفق لا يمكننا أن نسبح في مياهه الجارية مرتين، قد نعيش ذكرياته ولكن من المحال أن نعيش وقائعه الفعلية مرة أخرى، ما نستطيع فعله هو إعادة قراءة الماضي واستذكاره لا بل يمكن استحضاره وتناول أحداثه نقداً بما لها وما عليها، فالماضي أصبح ماضياً ولا يمكن إعادته، حتى وإن اختزنت الذاكرة أدق التفاصيل وأجمل الأحداث وأحلى اللحظات، لكنها جميعها باتت ذكريات من عالم الماضي..

عندما نستذكر الماضي من تاريخ دمشق نؤكد أنها عاصمة الحضارة الإنسانية الممتدة في عمق التاريخ إلى نحو من عشرة آلاف عام من الرقي والمدنية والتراكم المعرفي والفكري، فهي أقدم عاصمة مأهولة ما زالت قائمة، هي المدينة المنفتحة والمتفتحة على الحداثة مقصد الزوار والأفكار والكتب والأقوام والسلالات واللغات والجنسيات، هي مدينة تزخر بالعلم والأدب والفقه واللغة والشعر والفلسفة، مثلما تزخر بالتمرد والرفض والعناد والكبرياء والنقاء..

عُرفت دمشق بأنها مهوى أفئدة العرب ومحط آمالهم وأحلامهم، حيث وفدها على مرَ العصور عدد كبير من الأدباء والشعراء والعلماء، الذين سُحروا بجمالها وطيب هوائها ووفرة مائها حتى أن بعضهم استطاب العيش فيها، ومن هؤلاء ابن خلدون ومحي الدين بن عربي والأمير عبد القادر الجزائري، ومحمد مهدي الجواهري ومظفر النواب وغيرهم كثر..

هي دمشق التي قال عنها الرائع مظفر النواب.. «إنها دمشق، امرأة بسبعة مستحيلات، وخمسة أسماء وعشرة ألقاب، مثوى ألف وليّ، ومدرسة عشرين نبياً، وفكرة خمسة عشر إلهاً خرافياً

لحضارات شنقت نفسها على أبوابها... إنها دمشق التي تحملت الجميع، متقاعسين وحالمين، صغار كسبة وثوريين، عابرين ومقيمين، مدمني عضها، مقلمي أظفارها وخائبين وملوثين، طهرانيين وشهوانيين.. إنها دمشق أيها العرب العاربة والمستعربة، قبلة سياحكم، ومحط مطيكم، تمنح لقب الشيخ لكل من لبس صندلاً واعتمر دشداشة، ولا تعترف إلا بشيخها محي الدين بن عربي.. دمشق التي تتقن كل اللغات ولا أحد يفهم عليها إلا الله جلّ شأنه وملائكة عرشه.. لديها من العشاق ما يكفي حبر العالم.. لديها من المآذن ما يكفي ليتنفس ملحدوها عبق الملائكة.. دمشق هي العاصمة الوحيدة في العالم التي لا تقبل القسمة على اثنين»..

نعم هي دمشق الحنونة التي لا تعرف الطائفية على الرغم من احتضانها للكثير من المذاهب والطوائف والإثنيات والأديان، دمشق التي أعرفها هي مدينة الحب والجمال، مدينة السحر والخيال، مدينة العلم والكمال، هي خلية النحل التي تعمل ليلاً نهاراً فلا تتقاعس ولا تكسل هي مدينة العمران والبناء..

دمشق تستقبل الوافدين وتصهرهم في إطار مجتمعها الذي يتصف بقوة تماسكه فعلى الرغم من وجود الاختلاف إلا أنه لا يمكن التفكير مع وجود الاختلاف، إلاّ في أطر الاختلاف المتوفرة وليس الانشقاق عليها، وتلك صفات المدن الواثقة من نفسها، الحرّة، المعتدّة بما لديها، المنسجمة، والمتفاعلة مع الآخر المؤتلفة والمختلفة، ولكنها في نهاية المطاف لها مذاقها وسحرها ولونها ورائحتها، الخاصة..

وكم من الشعراء تغنوا بها مدينة للحب، مدينة للألوان، ومدينة للأنغام، وها هو الشاعر الموريتاني بللعميش يقول فيها:

خذي قلبي فأنت به أحق وقولي للزمان أنا دمشق

أنا قمر يسافر في غمام أنا الأوتار والنغم الأرق

ألم يتغنى بها أمير الشعراء أحمد شوقي ويهديها حبه ويناجيها شوقاً، ويشد على أيدي أهلوها الذين حرروها بدمائهم من الاستعمار الفرنسي؟:

سلام من صبا بردى أرّق و دمع لا يُكفكَف يا دمشقُ

جزاكم ذو الجلال بني دمشق وعزُّ الشرق أوله دمشق

أما ابنها البار الدمشقي المنبت والهوى نزار قباني فقد قال فيها:

هـــــــــذي دمــــــــــــشقُ وهـــــذي الكـــــأسُ والـــــرّاحُ

إنّـــــــــــــي أحـــــــــــبُّ وبعــــــضُ الحـــــبِّ ذبّـــــاحُ

أما شاعر العراق الكبير محمد مهدي الجواهري الذي ختم عطاؤه الشعري الوافر في دمشق ورقد على أرضها رقدته الأبدية ضاماً تربها فقد قال فيها:

دمـشق عـشقتك ريعانـاً وخافقـة ولمـــة العيـــون الـــسود والأرقـــا

تمـوجين ظـلال الـذكريات هـوى وتـــسعدين الأســـى والهـــمّ والقلقـــا

هي دمشق التي أشعلت في نفس الشعراء لواعج الحب وصيحات النصر، هي دمشق التي جدلت أيامها بضفائر الياسمين المكلل بالغار، هي دمشق التي أدهشت الدنيا فقالوا فيها ما لم يقال في أية مدينة أخرى، وها هو شاعرنا الشاب حسن قدور يساءل نفسه عنها:

كيف استطعتِ أن تختزلي

كل سماء بلادي ..

وكل نساء بلادي ..

وكل وجوه بلادي ..

وكل جحود بلادي ..

وكل عقوق بلادي ..

وفصول بلادي..

بتشرين........

دمشق تحمل تناقضها المنسجم معها ومع طبيعتها، فهي مدينة عريقة بامتياز، وهي مدينة مدنية وثقافية وفكرية بشرف، وهي مدينة محافظة وبنفس الوقت هي مدينة تقدمية.

وفي هذه الدمشق التي صدرت للعالم حضارة عشرة آلاف سنة والتي حملت من الأسماء عديدها فهي: جلق وجيرون، وباب الكعبة، والغناء، والفيحاء، والعذراء، وشام شريف.. في هذه الدمشق التي فتحت أبوابها للكل وبقيت عصية على الامتلاك، اشتهرت بانتشار المقاهي التي يرتادها المثقفون والأدباء والسياسيون. فقد عرفت دمشق المقاهي منذ مئات السنين، وكان أولها

«النوفرة» في دمشق القديمة، والذي ما زال مفتوحاً منذ 500 عام وحتى اليوم كمقهى شعبي تراثي يرتاده المولعين بزقاقات دمشق القديمة وروائعها التاريخية، لا سيما السياح منهم. إلا أن العديد من مقاهيها اشتهرت في القرن المنصرم، وكان الأبرز منها هو مقهى «الهافانا» الذي يتوسط مدينة دمشق ويتوضع في منطقة شديدة الكثافة والأهمية التجارية والاقتصادية والثقافية والرسمية.

تأسس مقهى «الهافانا» الذي يُعدّ من أشهر المقاهي الأدبية في سورية في العام 1945، أما شهرته الواسعة فقد اكتسبها من ارتياد وتدفق النخبة الكبيرة من الأدباء والشعراء والمفكرين والسياسيين من سورية والبلاد العربية إليه، الذين جعلوا منه مقراً لمنتدياتهم الأدبية والفكرية. ومن أشهر رواده من الشعراء والأدباء والسياسيين السوريين في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، الشاعر الراحل محمد الماغوط، والمفكر القومي زكي الأرسوزي والأديب الشاعر إسماعيل عامود، والكاتب الساخر شريف الراس. ومن الأدباء الذين كانوا يترددون على مقهى «الهافانا» بشكل دائم: سعيد الجزائري، محمد حيدر، غسان الرفاعي، صميم الشريف، شوقي بغدادي، عادل أبو شنب، نصر الدين البحرة، وليد مدفعي، محمد الماغوط، جان الكسان، صلاح دهني، وفارس زرزور وغيرهم كثر.. ولا بد لنا من الإشارة إلى أن مناقشات الأدباء الشباب آنذاك في مقهى «الهافانا» تمخضت عن ولادة رابطة «الكتاب السوريين» التي تحولت فيما بعد إلى رابطة «الكتّاب العرب»، وهو ما يعرف اليوم باتحاد «الكتّاب العرب»..

وكتب الأديب المصري رجاء النقاش مقالاً نُشر في مجلة البوليس في عددها الصادر بتاريخ 1959 //3/22 تحت عنوان (قهوة العباقرة) تحدث فيه عن بعض الشخصيات التي قابلها في مقهى «الهافانا» ومنها المفكر القومي زكي الأرسوزي (1900- 1968) فيقول عنه: «أكبر شخصية فكرية من رواد هذا المقهى من ناحية السن ومن ناحية المركز الفكري التاريخي هي شخصية بارزة في تاريخ سوريا، فهو من أسبق الذين دعوا إلى الفكرة العربية وآمنوا بها، وله في دعوته هذه كتب كثيرة، وقد جاء الأرسوزي من شمال سوريا إلى دمشق ليقيم فيها، ويغلب الحزن والقسوة والسخرية على شخصية الأرسوزي، ويمتلئ ذهنه بالأحلام المثالية التي يريد أن يحققها في ميدان النضال العربي.. والواقع أن الأرسوزي في كتاباته وشخصيته هو نموذج يلفت النظر تماماً»، أما الشخصية الأدبية الثانية التي تحدث عنها النقاش فهي شخصية الشاعر

والإعلامي الفلسطيني يوسف الخطيب فيقول: «ومن شخصيات مقهى «الهافانا» شاب أسمر إذا رأيته تظن أن وجهه قد لوحته شمس مصر، لكن سرعان ما تعرف أنه من فلسطين، وأن وراء حياته في دمشق قصة.. إنه من (الخليل) وكان يعمل قديماً بإذاعة (رام الله) في الأردن.. خرج الشاب ليعمل في إذاعة دمشق اسمه (يوسف الخطيب) ومهنته الاجتماعية مذيع أما مهنته الحقيقية فهي قرض الشعر.. تلقى يوسف دراسته في جامعة دمشق، وهاهو اليوم يعود إلى دمشق من جديد ليقيم فيها ويلتصق بمجتمعها الذي يستريح إليه..». أما الشخصية الثالثة التي تحدث عنها النقاش فهي شخصية الأديب الساخر(شريف الراس) المتخرج من كلية الآداب قسم الفلسفة بالجامعة السورية ويحدثنا النقاش عن طرائف قصصه الساخرة فيقول: «أنه لا يكف عن السخرية بكل شيء حتى بنفسه.. سأله أحد أصدقائه بعد أن تزوج: كيف حال زوجتك.. هل هي مثقفة؟ فقال: نعم.. فقال له صديقه: وكيف عرفت ذلك، فأجاب شريف الراس: لقد قرأت كل قصصي ولم تعجبها كلمة واحدة مما قرأته.. وهذا أكبر دليل على ثقافتها الرفيعة».

ومن رواده أيضاً الذين كانوا يتوافدون على دمشق من الدول العربية، من العراق؛ الشعراء بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وأحمد الصافي النجفي الذي كان مقيماً في دمشق، وكان يجلس في مقهى «الهافانا» لساعات طويلة، والشاعر القروي، ومحمد مهدي الجواهري، والمصري أحمد عبد المعطي حجازي.. وعدد من الفنانين أصحاب الشهرة العربية أمثال محمود المليجي وفريد شوقي والمطرب محمد عبد المطلب وغيرهم..

في مقهى «الهافانا» تلتقي تجمعات مختلفة التوجهات الفكرية والثقافية والسياسية، فقد كان الملتقى الدائم لرجال السياسة الذين ينتمون إلى قوى سياسية وأحزاب مختلفة. والجدير بالذكر أن مقهى «الهافانا» احتضن المؤتمر التأسيسي الأول لحزب البعث العربي الاشتراكي سنة 1947، وهذا ما أضفى عليه الأهمية التاريخية والسياسية..

شكّل هذا المقهى جزءًا هاماً من حياة المجتمع الدمشقي وبالتالي كان لا بد لمن يرغب في التعرف على الحياة المجتمعية الدمشقية وتطورها أن يقوم بدراسة تاريخ هذا المقهى من خلال شخصياته وزبائنه..

هذه هي دمشق التي ما أن تشعر أن ثمة ما ينتقص من كرامتها أو يريد عزلها أو تهميشها أو التمييز ضدها، تدير ظهرها أولاً ثم لا تلبث أن تتحدى.. فدمشق ليست تراثاً شعبياً ممزوجاً بالفن

والأدب والثقافة والدين والمعرفة واللغة والمقاهي والرجال الشجعان والنساء الجميلات والوافدون فحسب، بل هي كل ذلك وأكثر، فهي المُبتدى وهي المنتهى. هي ذاكرة المكان الذي يبقى تاريخاً معجوناً ببشر، هم من صَنعَ الحدث أو شارك فيه أو شاهده أو جمع الحكايات عنه، وهذا ما يشكّل هذا الفيض من التداعيات المتراكمة. فدمشق مدينة مضمخة بعطر الياسمين، وأنداء الفل وزهر النارنج، ومفعمة بالأدب والشعر خصوصاً، والثقافة عموماً دون أن ننسى أجواء المنطق والفلسفة ومن ثم تجاذباتها مع الدين والتديّن، والتصوف والعشق الإلهي، والدين الاجتماعي والنظر إلى الدين والمتدينين سسيولوجياً، حتى أن الانطباع الأول لدمشق المتسامحة، المفتوحة كان ثقافياً بامتياز، مدنياً، متنوعاً، وسجالياً، تتجاور فيه الأضداد على نحو كبير وغريب، فهي مدينة الجدل والتناقض التي ضمت منارات الفكر والمعرفة ولطالما كانت مقاهي المثقفين في دمشق من هذه المنارات الفكرية التي تضم مجموعات الكتاب والسياسيين، فتحتفي بالنقاشات والحوارات العميقة التي استطاع بعضها تغيير معالم الخريطة الثقافية السورية..